Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 35:1 (2000)

بسم الله الرحمن الرحيم

"في منزل الوحي لمحمد حسين هيكل ومكانته في أدب الرحلات الى الحرمين"

سيد رضوان علي الندوي

أدب الرحلات من أطرف الآداب العالمية وأغناها إنتاجا وأحبها إلى نفوس العام والخاص. وأقدم المؤرخين للتاريخ العالمي هيرودوتس اليوناني أو كما يسميه العرب هيرودوت من القرن الخامس قبل الميلاد ضمّ إلى كتابة، THE HISTORIES (أي التواريخ) أخباراً عن مصر وسواحل الشام وآسيا الصغرى جمعها بعد رحلاته إلى تلك البلاد.

ومن أشهر الرحلات في آسيا الجنوبية في القرن السابع الميلادي رحلة السائح الصيني هوان تسانج في ربوع الهند، كتبها بعد سياحاته

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

في أرجائها إحدى عشرة سنة.

وفي العصر الإسلامي اشتهرت رحلة ابن جبير الأندلسي الذي رحل إلى الحجاز بقية الحج سنة ٥٧٨هـ أي قبل سقوط بغداد بنحو ثمانين عاما عن طريق مصر. ثم ساح في العراق والشام وغيرهما وعاد إلى غرناطة بعد سنتين، وعُني المستشرقون برحلته منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي فطبعت في مختلف مدن أوربا عدة مرات مع ترجمتها إلى اللغات الفرنسية والإنجليزية والإيطالية وغيرها.

وبعده بنحو قرن ونصف قرن قام ابن بطوطة الطنجي المغربي برحلته الشهيرة من مراكش إلى الشرق العربي والإسلامي وذلك في النصف الأول من القرن الثامن الهجري.

وقبل ابن بطوطة بنحو نصف قرن قام الرحالة البندقي الإيطالي ماركو بولو برحلته إلى الصين عن طريق الشام وإيران في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي.

وهناك رحلة باللغة الفارسية قام بها الرحالة الإيراني ناصر خسرو في النصف الأول من القرن الخامس الهجري وقضى فيها نحو سبع سنوات بدأها بمدينة مرو ٤٣٨م إلى إيران فالشام ففلسطين فالحجاز ثم مصر حيث بقي نحو خمس سنوات، وحج منها ثلاث مرات أخرى، وعاد عن طريق العراق إلى بلخ سنة ٤٤٤هـ.

فهذه الرحلات الخمس أشهر الرحالات العالمية، كتبت بالصينية والعربية والإيطالية والفارسية، ثم ترجمت إلى عدد من اللغات الشرقية والأوربية، وثلاثة من هذه الرحلات أعني رحلة ابن جبير ورحلة ابن

بطوطة وسفرنامه ناصر خسرو قد اشتملت على فصول عن الحجاز والحرمين الشريفين.

وأما أدب الرحلات إلى الحرمين الشريفين فهو أحب أصناف أدب الرحلات إلى النفوس المؤمنة المسلمة في جميع الشعوب الإسلامية في قارات العالم ولدى المسلمين الأوربيين والأمريكان، ولا شك في أنه موضوع جدُّ شيّق وطريف،وله تأثير فكري وروحي عميق في النفوس، ولكنه في نفس الوقت ذو شعب وأطراف، وأن المسلمين العرب والفرس والأتراك والهنود والباكستانيين والسيلانيين والأندونسيين والملاويين والصينيين والأوربيين ألفوا عن رحلاتهم في شتى لغاتهم. ومسح وإحاطة أعمالهم في تلك اللغات المتنوعة العديدة، الشرقية والغربية يتطلب تضافر جهود أوسع وأشمل وإمكانيات مادية أغنى وأوفر، ولعل الله ييسّر ذلك في المستقبل حتى تتمكن رابطة الأدب الإسلامي من إعداد موسوعة عالمية عن أدب الرحلات إلى الحرمين الشريفين، وما ذلك على الله بعزيز، ونحمد الله أن بذرت البذور لذلك المشروع الكبير.

وأما أنا فاخترت لنفسي دراسة رحلة الدكتور محمد حسين هيكل، الزعيم السياسي المصري الشهير إلى الحرمين الشريفين، والتي تحمل عنوان: **"في منزل الوحي"**، وقد طبع لأول مرة قبل ستين عاما تماما في سنة ١٩٣٧م. وأمامي الطبقة الثانية له في سنة ١٩٥٢م بالقاهرة.

وقبل أن أتحدّث عن هذا الكتاب وصاحبه أود أن أشير إلى عدد

من الرحلات إلى الحرمين المطبوعة في العربية، والبعض منها أفاد منه مؤلف"**في منزل الوحي**".

١) فأقدم هذه الرحلات فيما أعلم"الرحلة العياشية"،وهو لأبى مسلم عبد الله بن محمد العياشي المغربي المتوفى سنة ١٠٩٠ هـ/١٦٧٩م (والعياشي نسبة عدد من المؤلفين) وقام أبو سالم العياشي برحلته من المغرب العربي إلى الحجاز في سنة ١٠٧٣هـ/١٦٦٢م، وجاور الحرمين عدة سنين. وطبعت رحلته هذه طبعة حجرية بمدينة فاس في جزء ين سنة ١٣١٦هـ/١٨٩٨م، وهما على التوالي ٤٥٦+٤٢٢ صفحة ومجموعها ٨٧٨ على ما ذكره إليان سركيس في معجم المطبوعات العربية والمعرّبة".

٢) رحلة إلى الحجاز لأبي العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي الجعفي الزينبي المتوفى سنة ١١٢٩هـ وهكذا ذكره سركيس في كتابه الآنف الذكر بنسبته الزينبي الأخيرة. وأما في أعلام الزركلي فهو ابن ناصر الدرعي(١/٢٢٩) وكذا نسبته الدرعي في معجم المؤلفين لكحالة (٢/١٦٤).

ولكن اسم كتابه عند الزركلي" **الرحلة الناصرية**"، بينما ذكره كحالة باسم" **رحلة إلى المشرق**"، والصواب فيما يبدو ما ذكره خير الدين الزركلي لأن مصادره عنه أكثر وأوفى. وكان ابن ناصر الدرعي من فضلاء المغرب وصلحائه، شديدا على أهل البدع. قوّالا للحق وقام برحلته للحج سنة ١١٢١هـ/ ١٧٠٩م. وقد طبع هذا الكتاب بمدينة فاس أيضا سنة ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م.

٣) **الرحلة الحجازية** لمحمد سليم الشهابي المخزومي، وهو كتاب مختصر في ١٢٦صفحة، طبع في الإسكندرية سنة ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م في حياة المؤلف حسب كلام كحالة (٤٦/١٠) ولم نعثر على ترجمته غير اسمه واسم كتابه في **معجم سركيس ومعجم كحالة**.

٤) **الرحلة الحجازية** لمحمد بك لبيب البتنوني أو البتانوني(ويكتب بالصورتين، وعلى قول الزركلي، البتنون قرية من أعمال المنوفية بمصر) المتوفى سنة ١٩٣٨م، وكان محمد لبيب أديبا مؤرخا رحالة من رجال حاشية ملك مصر عباس حلمي الثاني، خديوي مصر، وقام برحلات إلى الأندلس وأوربا وأمريكا، وطبعت رحلاته إلى تلك البلاد، كما قام برحلة الحج إلى الحرمين الشريفين سنة ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م في معية خديوي مصر عباس حلمي الثاني. وقد طبعت الرحلة الحجازية هذه سنة١٣٢٨هـ/١٩١٠م، ذكر فيه مؤلفه جغرافية الحجاز وتاريخه وأثاره، وفيه خرائط ورسوم وهو في ٢٦٨ صفحة في الطبعة الأولى، و٣٣٤ صفحة في الطبعة الثانية بعد زيادات عن جزيرة وتاريخ الأمة العربية.

٥) **مرآة الحرمين** لإبراهيم رفعت باشا المتوفى سنة ١٩٣٥م، وكان ضابطا كبيرا في الجيش المصري، وقام بمهمات عسكرية في السودان، كما له أعمال وطنية بمصر، وتولى إمارة الحجاج المصريين ثلاث مرات في سنوات ١٣٢٠هـ/١٣٢١هـ و١٣٢٥هـ (١٩٠٢م، ١٩٠٣م، و١٩٠٧م). وألف كتاب **مرآة الحرمين** عن رحلاته تلك ، وطبع في مجلدين سنة ١٩٢٥م، وفيه صور فوتوغرافية لآثار مكة

والمدينة، وخرائط عديدة.

فأشهر هذه الرحلات الخمس، الرحلة العياشية، والرحلة الحجازية لمحمد حبيب البتنوني، ومرآة الحرمين لإبراهيم رفعت، وأوّلها من القرن السابع عشر الميلادي فأسلوبه قديم، بينما الأخران من أوائل هذا القرن العشرين، وبأقلام رجلين مرموقين جمعا بين الثقافة العربية والثقافة الغربية، ومؤلف كتاب" في منزل الوحي" بجانب مشاهداته الشخصية في رحلته إلى الحرمين أفاد من هذه الكتب الثلاثة، وخاصة **مرآة الحرمين والرحلة الحجازية** للبتنوني وذكرها في مناسبات في أثناء كتابه. كما أنه أفاد من رحلة أوّل رحّالة أوربي إلى الحجاز وهو بركهادت (BURKHADT) السويسري الذي درس في سويسرا وإنجلترا(كيمبرج) وتجنّس بجنسية بريطانية، ثم جاء إلى حلب ودرس فيها العربية والقرآن. وأسلم وزار الحرمين في سنة ١٨١٥م، ووصف الآثار والقباب المنهدمة في مكة والمدينة، والتي كان هدمها النجديون الوهابيون في حملتهم الأولى على الحجاز، وكان بركهادت قد تسمّى باسم إبراهيم المهدي بن عبدا لله، وذهب من الحجاز إلى مصر حيث توفي فيها سنة ١٨١٦م، ودفن فيها، ويذكره بعض المصريين بالحاج بركات عبدا لله أو يذكره هكذا عامة المصريين، وأما محمد حسين هيكل فيذكره بورخات.

والطريف في الموضوع أنه يذكر في رحلته بالإنجليزية TRAVELES IN ARABIA (جولات في بلاد العرب) في مجلدين هذه الأبنية والقباب المهدّمة في جنّة المعلاة وجنّة البقيع وغيرهما، ثم

يسترد الأشراف الحجاز بمساعدة الدولة العثمانية وجيش مصر فتبنى هذه المشاهد والقباب في تلك الأماكن الدينية الأثرية من جديد ويذكرها كل من محمد لبيب البتنوني في **الرحلة الحجازية** وإبراهيم رفعت باشا في **مرآة الحرمين** ويقدمان صورها الفوتوغرافية، ثم لما يزور الدكتور محمد حسين هيكل الحرمين سنة ١٩٣٦م أي بعد استيلاء عبدالعزيز بن سعود على الحجاز بعشر سنوات يجد هذه المشاهد والقباب منهدمة لا أثر لها في أيٍّ من مكة والمدينة، فيعلق في كتابه بهذه المناسبة تعليقا طريفا مع ما يراه الصواب في المسألة، وربما سنذكره فيما بعد. وقصدنا هنا إبراز أن مؤلف" **" في منزل الوحي"**، أفاد من مصادر ومراجع متنوعة وعديدة للشرقيين والغربيين قديما وحديثا، ومن ثم فكتابه له قيمة علمية، وأنه ليس مجرد وصف ما شاهده، فكثيرا ما نراه يقتبس من **"تاريخ مكة"** للأزرقي و **"ووفاء الوفاء"** للسمهودي:**"وشفاء الغرام بأخبار المسجد الحرام"**، ومن **كتاب ريتشرد برتن** الإنجليزي(THE PILGRAMAGE TO MECCA AND MADINA)، وكان قد ادعى الإسلام كذبا واختار لنفسه اسم الحاج عبدالله وزار الحرمين في القرن التاسع عشر، الميلادي.

وهكذا فبسبب رجوع المؤلف الدكتور محمد حسين هيكل إلى المصادر والمراجع المتنوعة جاء كتابه كوثيقة علمية ودراسة مقارنة وللكتاب ميزات أخرى نذكرها في حينه.

المؤلف: وأما مؤلف الرحلة "في منزل الوحي" الدكتور محمد حسين هيكل فمن الشخصيات السياسية الأدبية الشهيرة في مصر في النصف

الأول من القرن العشرين، وإن أصبح أقل شهرة لدى الجيل الجديد من غير العرب، أقول هذا لأنه نشر لي مقال بالإنجليزية في الجريدة المعروفة لشهرة بكراتشي DAWN (الفجر) عن السيرة النبوية في شهر ربيع الأول الماضي (١٤١٨هـ) وذكرت فيه من بين المراجع الحديثة المهمة كتاب "**حياة محمد**"(صلى الله عليه وسلم). لمحمد حسين هيكل هذا، فإذا بصديق لي الذي يكتب في نفس الجريدة وغيرها من الجرائد الإنجليزية والأوردية يثني عليّ وفي نفس الوقت يعقّب قائلا إنني غلطت في اسم محمد حسين هيكل، إذ اسمه محمد حسنين هيكل. فصححت كلامه بأن هذا الأخير صحفي نبغ واشتهر في عهد جمال عبدالناصر في النصف الثاني من هذا القرن بينما الأول قبله بزمن طويل وهو سياسي حقوقي ومؤلف شهير.

وهذا من جناية الصحافة والتلفزيون علىَ الجيل الجديد الذين شغلاه عن قراءة الكتب؛ ولأجلذلك كثيرا ما يلاحظ المرء عندهم ضحالة علمية.

وعلى كل فالدكتور محمد حسين هيكل من رواد النهضة السياسية والصحافية والعلمية في مصر، وهو من جيل الدكتور طه حسين، والدكتور أحمد أمين، وأحمد حسن الزيات ومصطفى النحّاس باشا وغيرهم. وقد ولد محمد حسين هيكل في قرية هيكل بمركز السنبلاوين بمصر في أسرة موسرة سنة ١٨٨٨م وتخرّج في مدرسة الحقوق (القانون)، وأتم دراسته في باريس حيث حصل على شهادة الدكتوراه في القانون، وبعد عودته إلى مصر انضم إلى حزب الأحرار

الدستوريين وتولّى تحرير جريدة السياسية اليومية والأسبوعية، ثم أصبح رئيسا لهذا الحزب، ورئيس مجلس الشيوخ في البرلمان المصري، كما تولّى منصب وزير المعارف عدة مرات في العهد الملكي بمصر.

مارس محمد حسين هيكل الكتابة وعمره أربع وعشرون سنة، إذ نشر له أول كتاب"**دين مصر العام**" بالفرنسية سنة ١٩١٢م، ثم بعد سنتين نشر أُوْلَى رواياته"**زينب**" وهي في رأى النقّاد أول رواية بالغربية بالمعنى الصحيح، ثم اتجه إلى كتابة **سير العظماء**، فألّف "جان جاك روسو" في سنة ١٩٢١م "**وتراجم**" سنة ١٩٢٩م، و"**حياة محمد**" سنة ١٩٣٥م، و"**الصدّيق أبو بكر**" سنة ١٩٤٢م، و" **الفاروق عمر** " جزءان سنة ١٩٤٥م، كما أنه نشر في مجال الأدب "**في أوقات الفراغ**"سنة ١٩٢٥م " **وثورة الأدب**" سنة ١٩٣٣م، وغيرها من المؤلفات في التربية والرحلات، وآخر كتابه **مذكرات في السياسة المصرية**، الجزء الأول سنة ١٩٥١م.

وقد قامت الثورة المصرية في يوليو سنة ١٩٥٢م، وكنت في مصر بعد الثورة بسنة في أغسطس سنة ١٩٥٣م، وما زال بعض رجال العهد الملكي حديثَ الصحافة المصرية،كما رأيت وسمعت بعض هؤلاء الزعماء السياسيين والوزراء السابقين في حفلات بجمعية الشبان المسلمين في شارع الملكة(شارع الجلاء بعد الثورة) والتي كان يرأسها صالح حرب باشا، ومن هؤلاء الذين سمعتهم وهم يخطبون فيها، صلاح الدين باشا وزير الخارجية في حكومة الوفد عن الثورة، والدكتور منصور فهمي باشا، وغيرهم، ولكني لم أسمع عن الدكتور محمد حسين

هيكل شيئا، فلعله كان قد اعتكف في داره، لظروف سياسية وعسكرية طارئة أو ألمَّ به مرض أقعده، ولقد بقيت في مصر إلى فبراير سنة ١٩٥٥م، وإن الدكتور حسين هيكل قد انتقل إلى رحمة الله سنة ١٩٥٦م، وهكذا عاش ٦٨ سنة.

وكان في أول حياته من المأخوذين بثقافة الغرب والمنساقين وراء قيمه الفكرية من الحرية والعلمانية، ولكن طرأ على فكره تحول في سنة ١٩٣٣م عندما ألف كتابه **ثورة الأدب**، فإذا به يحوّل وجهته من الغرب إلى الثقافة العربية الإسلامية، ولقد تحدّث عن هذا التحوّل في تقديم كتابه "**في منزل الوحي**" عندما ذكر كيف أن أصحابه وزملاءه السابقين. بدأوا يصمونه بالرجعية ومنذ ألف كتابه" **حياة محمد**" – صلى الله عليه وسلم. الحقيقة أن هذا الكتاب المكوّن من ٥٨٤ صفحة بالإضافة إلى ٤٣ منها في الفهارس والذي نشر لأول مرة في سنة ١٩٣٥م، كان إيذانا صريحا عن هذا التحوّل الحسن المبارك، وكان أول كتاب عن السيرة النبوية في العربية فيه دفع مطاعن الغربيين المستشرقين على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم. وهو في أسلوب علمي حديث معتمد على مصادر أصلية ومراجع حديثة شرقية وغربية. وقد طبع عشرات المرات منذ صدور طبعته الأولى، وعندي الطبعة الثالثة عشرة، سنة ١٩٧٥م، دار المعارف مصر، وقد ترجم إلى لغات إسلامية أخرى، ومنها اللغة الأوردية.

وبعد صدور "**حياة محمد**" – صلى الله عليه وسلم– بسنة قام المؤلف برحلة الحج، ونشر كتابة "**في منزل الوحي**" عن هذه الرحلة

إلى الحرمين الشريفين سنة ١٩٣٧م. وكتاباه " **الصدّيق أبو بكر**" (١٩٤٢م) و" **الفاروق عمر**" (رضي الله عنهما) (١٩٤٥) لدليلان آخران على هذا التحول الفكري الصحيح، فلم يبق جان جاك روسو الفرنسي مثلا يُحتذى لمحمد حسين هيكل الآن، بل أصبح مثله الأعلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه رضى الله عنهما، فلنأخذ الآن في الحديث عن المؤلفِ بعد ما عرفنا مؤلّفه أديبا، صحافيا، مؤرخا سياسيا، وزيرا وكاتبا غزير الإنتاج متنوعة.

في منزل الوحي: إن هذا الكتاب الذي نشر لأول مرة في سنة ١٩٣٧م. أمامي له الطبعة الثانية التي نشرت من قبل مكتبة النهضة بالقاهرة سنة ١٩٥٢م. واشتريته في إحدى رحلاتي إلى القاهرة قبل نحو ربع قرن أو أكثر ونظرت فيه من هنا وهناك أحيانا، ولكنني لم أقرأه قراءة استيعاب وإمعان إلا عند كتابة هذا البحث، ويعلم الله أنني أعجبت به أيّما إعجاب، إذ رأيت فيه محمد حسين هيكل آخر غير الذي ارتسم في ذهني منذ مدة طويلة أي الدكتور هيكل " السياسي الدستوري الوزير"، ولكن ما مضيت في قراءة فصول الكتاب المختلفة إلا انكشفت أمامي صورة أخرى للمؤلف، صورة مسلم مؤمن، محب للحرمين الشريفين، محب للنبي صلى الله عليه وسلم، دارس لرسالة الإسلام دراسة متأنية عصرية عميقة، مقدّر لروحانية الدين الإسلامي وسموّها على حضارة الغرب التي طغت فيها المادية على القيم الروحية.

وليس هذا الكتاب مجرد انطباعات رحالة إلى الحرمين الشريفين وما شاهد فيهما خلال الحج وبعد الحج من مشاعر وآثار وأماكن،

ومن التقى فيهما من الشخصيات وغير ذلك من ألوان الحياة الاجتماعية والدينية والاقتصادية، بل إنه كتاب سكب فيه المؤلف عصارة فكرة بما يتعلق برسالة التوحيد الإسلامية في صفائها وقيمتها وأهميتها في حياة الإنسان وفي إسعاد البشرية، ومكانة النّبي - صلى الله عليه وسلم - في تبليغ هذه الرسالة ودوره العظيم ودور صحابته الأجلاء في الاحتفاظ بنقائه ونضارته، فهو كتاب فكر إسلامي أصيل مكتوب في ضوء التاريخ الإسلامي في عصر النبيّ - صلى الله عليه وسلم - وبعد عصره حتى قيام الدولة السعودية الثانية أو الثالثة على يد الملك عبدالعزيز آل سعود، وهو بحث عميق في جغرافية مكة والمدينة والطائف والطرقات الموصلة بعضها إلى بعض التي مرّ الرسول صلى الله عليه وسلم بها خلال دعوته في مكة والطائف والمدينة. ثم هو دراسة باحث متعمق متأن لآثار النبي عليه الصلاة والسلام وأسرته الكريمة في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وما طرأ عليها عبر العصور، مع ذكر آراء الرحالة والعلماء السابقين ومناقشتها وتقديم اقتراحاته في هذا المجال.

إن هذا الكتاب حصيلة رحلة الحج قام بها المؤلف في سنة ١٩٣٦م/ ١٣٥٥هـ، وبقي بعده ستة أسابيع في الحجاز زائرا ودارساً في ضيافة الوزير عبدالله بن سليمان آنذاك يصحبه في رحلاته العلمية وزياراته في مكة والطائف والمدينة عالم حجازي واسع الاطلاع الشيخ عبدالحميد الحديدي، وبعض الشبان المثقفين الآخرين من مكة والمدينة.

وهو يتحدّث في أول فصل من الكتاب تحت عنوان **"عزم السفر"**، بأنه منذ أخذ في تأليف كتابه" **حياة محمد**" في سنة ١٩٣١م كان يشعر

في نفسه بالرغبة في الذهاب إلى الحجاز، ثم إنـه عندمـا سيّرت شـركة مصر للملاحة البحرية باخرتها الأولى " زمزم" إلى الأمـاكن الإسـلامية المقدسة في سنة ١٩٣٤م، وعلم المؤلف بأن في نيتها تسيير هذه البـاخرة في أكتوبـر مـن تلـك السـنة لأداء العمـرة في رجـب صمـم أن يذهـب للحجاز، ولكن الشـركة ألغـت هـذه الرحلـة لقلـة الإقبـال علـى هـذه الزيارة الرَّجَبِيّة. ليس هذا فقط بل يحدث المؤلف أنه قد ضـاعت عليـه فرصة أخرى قبل ذلك للسفر إلى الحجاز، فإنه كان قـد دُعِـيَ لحضـور حفلة " التتويج" للملك عبدالعزيز آل سعود مع بعض رجـال الصحافـة المصرية الآخرين، ولكنه آثر عدم الذهاب بسبب مفاوضات جارية بـين مصر وبريطانيا لعقد اتفاق بينهما(وهو رئيـس تحريـر جريـدة السياسـة آنذاك يتابع ذلـك كمسـؤول صحـافي) مـن جهـة ولعـدم وجـود دافـع نفسي قـوي عنـده لأنه لم يبدأ بعد في كتابة **"حياة محمد"** - صلى الله عليه وسلم- من جهة أخرى، فأرسل صديقه وزميله الصحافي الأديـب عبدالقادر المازني ممثلا جريدة " السياسة" نيابة عنه(ص ٣٥-٣٦).

ولقد كتب المؤلف تقديما ضافيا لكتابه هذا في اثنتـين وعشـرين صفحة، وهو جدير بالقراءة. وفيه يرد على أولئك الذين طعنوا فيه بأنـه بتأليف كتابه **"حياة محمد"** - صلى الله عليه وسلم- انقلب من طليعـة " المجدّدين" إلى كاتب رجعي، فيقول مدافعا عن نفسه بإيمان وثبـات: " وكيف لا أنقلب عندهم رجعيا، وقد جعلت القرآن حجّتي، وما جـاء فيه عن السيرة سندي، ولم أضعه كما يقولـون موضـعِ النقـد العلمـي! وكيف لا أنقلب عندهـم رجعيا وقـد دفعت بالحجة ما طعـن بـه علـى

النبي العربي – صلى الله عليه وسلم- جماعة المستشرقين ومن تابعهم من شباب المسلمين! وكيف ساغ لي بعد ذلك أن أرغم أمامهم في "**حياة محمد**" – صلى الله عليه وسلم- وأن أزعم اليوم هاهنا أنني طليق من القيود، عدوٌّ للجمود، نصير للبحث العلمي الحرّ، وإنيّ أومن بحرية الرأي وأعتبرها الأساس، لا أساس غيره لمن يريد معرفة الحقيقة.هم يرون ذلك خداعا يأباه العلم والبحث الحر، وأنا بعد عندهم رجعيّ انقلبت إلى الجمهور أتابعه ابتغاء رضاه، وكنت قبل ذلك أتقدمه أريد توجيهه وهدايته".

ويدفع بعد ذلك هذا المغمز الذي غمزوه به ظلما في أسلوب علمي منطقي هادئ في نحو صفحتين، ومما جاء فيه قوله:" كيف نستطيع أن ننقل ثقافة الغرب الروحية لننهض بهذا الشرق، وبيننا وبين الغرب في التاريخ وفي الثقافة الروحية هذا التفاوت العظيم! لا مفر إذن من أن نلتمس في تاريخنا وفي ثقافتنا وفي أعماق قلوبنا وأطواء ماضينا هذه الحياة الروحية نحي بها ما فتر من أذهاننا وخمد من قرائحنا وجمد من قلوبنا".

ثم يتابع قوله :" هذا كلام واضح بيّن، ومن عجب أن يخفى على أصحابي، فلا يرونه وأن يكون خفاؤه سبب تثريبهم عليّ،ولكن لا عجب، فقد خفي هذا الكلام عنّي سنوات كما لايزال خفيا عن كثيرين منهم. وقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لنتخذهما جميعا هدى ونبراسا ، لكنني أدركت بعد لأي أنني أضع البذر في غير منبته، فإذا الأرض تهضمه، ثم لا تتمخّض

عنه ولا تبعث الحياة فيه ... وروّأت فرأيت أن تاريخنا الإسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر، ففيه حياة تحرّك النفوس وتجعلها تهتز وتربو. ولأبناء هذا الجيل في الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتي ثمرها بعد حين".

فهو إذن ليس بقاصّ يقصّ رحلته إلى الحرمين، بل إنه يبذر بذرة الفكرة الصالحة من التاريخ الإسلامي لتنمو في نفوس هذا الجيل من الشباب المسلم وتؤتي ثمراتها. والتقديم كله جدير بالقراءة وخاتمة تقديمه تدلّ بوضوح أن له غاية من هذا التأليف نبيلة، وهي:

" وأختم هذا التقديم راجيا أن يثمر هذا العمل من تقدير قومي ما يدعو جامعات الشرق العربي وما يدعو الكتّاب إلى مزيد من العناية بهذه البلاد الإسلامية المقدّسة ، ودراسة حاضرها وماضيها دراسة علمية دقيقة، وما يدعو المفكرين والساسة أولى العزم ليعملوا على إصلاح هذه البلاد **وليتخذوا من مكة، أم القرى، مقرًّا لعصبة أمم إسلامية**، ألا لو فعل هؤلاء وأولئك ليكوننّ عملهم أعظم فوز هذا الكتاب(ص ٣١).

وعن هذه الغاية النبيلة قال في خاتمة الكتاب: " فإنني لعلى يقين من أن التأمل في السيرة ومواقفها، وفي التعاليم التي جاء بها الرسول خير ما يهدي الإنسانية سبيل الحق والخير والجمال" (ص ٦٧٤)[١].

وفي الكتاب شيء كثير عن نواحي سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - المختلفة في مناسبات عديدة في ذكر مكة والطائف والمدينة، ثم الكلام على الإيمان وعلى مبادئ الإسلام بعاطفة مخلصة

قوية وبأسلوب منطقي حكيم مبثوث في ثنايا الكتاب ، وهو يخاطب بصفة خاصة جيل مصر الجديد الذي خطف أبصاره بريق حضارة الغرب وثقافته، ويبرز لهم قيم الإسلام السامية مستغلا ذكره للمشاعر المقدسة والكعبة المشرفة والمسجد النبوي والروضة الشريفة، بل والطريق من مكة إلى المدينة يذكّره بالطريق التي سلكها الرسول- صلى الله عليه وسلم - طفلا وشابا ومهاجرا إلى المدينة ثم منها إلى مكة عام الحديبية، ولقضاء العمرة ، ثم فاتحا في العام الثامن وأخيرا في حجة الوداع، ويستلهم من كل هذه الذكريات عبرا ويقدمها بعاطفة إيمانية صادقة وفي أسلوب أدبي رائع رفيع.

والكتاب كله نثر أدبي مرسل، فإن صاحبه أديب مطبوع بدأ حياته بكتابة رواية "**زينب**" ثم إنه كتب سنوات عديدة كصحفي وكرئيس تحرير لجريدة: السياسة"، أيام كانت الصحافة بمصر في أيدي كبار أدباء مصر أو تعتمد عليهم أمثال مصطفى لطفي المنفلوطي، ومصطفى صادق الرافعي ومحمد بن إبراهيم المويلحي وأحمد أمين، وطه حسين وأحمد حسن الزيات ومحب الدين الخطيب وغيرهم، وليس صحافة اليوم يسيطر عليها أخباريون محترفوا الصحافة رصيدهم من اللغة والأدب ضئيل.

إقرا معي آخر مقطع من فصل "طريق المدينة" وقد رأى المؤلف في سيارته القبة الخضراء من بعيد قبيل وصوله إلى أبواب المدينة، يقول فيه:

"الله أكبر و لله الحمد!بلغنا إذاً مقصدنا. فالقبة الخضراء قبّة

الحرم النبوي، وهي الآن أمامي وعلى مرمى نظري. فليسرع حسن (السّوّاق) إذاً حتى نقوم بزيارة الحجرة التي صارت قبر الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم– بعد أن كانت سكنه في الحياة، والمكان العزيز عليه في دار عائشة رضي الله عنها، وليُسرع حتى نمتّع النفس والقلب بالوقوف خُشّعاً أمام هذه الحجرة ونسلّم على صاحبها، ونشهد أنه بلغ رسالة ربه. ونحاول أن يصلنا روحنا الضعيف الرازح تحت أعباء الحياة ومادتها في عالم الدنيا بروحه القوى الأمين الذي سما بفضل من الله ومغفرة إلى مقام الرسالة الأسنى، فكان صاحبها الأسوة والمثل في حياته،وكان بعد مماته نور الجمال والكمال، والسر والجلال، والوحدة، والضياء الوضّاء الذي غمر العالم فأنار له السبل وهداه محجة الحق. ليُسرع فالنفس مشوقة، والقلب يود أن يطير إلى هذا الموقف، ويشهد عن كثب منبع هذا النور وأن يمتلئ من إشراق سناه. هذه لذة كبرى بدأت أشعر بها وأريد أن أنهل منها وأبلغ الريَّ الروحي ريّاً كاملاً لا أظمأ بعده أبداً.

"والسيارة تجري ، والقبة الخضراء تزداد وضوحا ويزداد النظر بها تعلّقا وها هي ذي بشائر المدينة المنورة كلها تبدو، لقد صرنا إذا منها قاب قوسين أو أدنى".

وكتاب "في منزل الوحي" مقسّم إلى ستة أبواب (يسمها مؤلفه الكتب) وهي: فرض الحج – البلد الحرام– الطائف وآثارها – بين الحرمين – مدينة الرسول – أوبة الرضا– وفي كل باب فصول تتراوح بين اثنين وبين ثمانية، بالإضافة إلى تقديم الكتاب (٢١ صفحة)

والخاتمة (٩ صفحات)، والكتاب كله في ٦٧٤ صفحة بالإضافة إلى٣٥ صفحة في فهارس الأعلام والأماكن وما إليها.

ومن فصول الكتاب: العمرة بمكة – وقفة عرفات – أيام التشريق. وفي الكتاب الثاني ثمانية فصول منها:مكة الحديثة–ابن السعود بمكة – في جوف الكعبة – آثار مكة – غار حراء – في غار ثور. وفي الكتاب الثالث، بعض فصوله: طريق الطائف – الطائف – أسواق العرب. وفي الكتاب الرابع: الحرمين ، فصوله الثلاثة: طواف الوداع – طريق المدينة – وحي المدينة. وأما الكتاب الخامس: مدينة الرسول، فهو أطول الكتب أو الأبواب،وفيه ثمانية فصول، منها: في المسجد النبوي –المدينة الحديثة –آثار المدينة– جنة البقيع– أمام الحجرة النبوية. والكتاب السادس يحوي فصلين فقط: بدر وشهداؤها ـ أوبة الرضا.

والكتاب وثيقة سياسية اجتماعية دينية لما كانت عليه الأحوال في الحجاز في الثلاثينات من القرن العشرين بعد استيلاء عبد العزيز ابن سعود على الحجاز بعشر سنوات فقط، وقيمة هذه الوثيقة التاريخية أنها بقلم صحفي ومؤرخ واسع الاطلاع وزعيم سياسي يهتم بأمور المسلمين،وعنده مقترحات لتحسين أحوال الحجاز بثّها في ثنايا الكتاب وفي لقاءاته مع الملك عبدالعزيز بن سعود، بالإضافة إلى تتبعه للآثار في كل من مكة والمدينة بكثير من الدقة، وتأسفه أحيانا على ضياع معالم هذه الآثار لضيق أفق النجديين وتفكيرهم السطحي وغلوهم العقائدي، ولعل من أهم ما كتبه هو فيما يتعلق بالطرق التي سار الرسول صلى

ا لله عليه وسلم في طريقه إلى الطائف وعودته منها، وذهابه إلى المدينة في هجرته، ثم ترده صلى ا لله عليه وسلم إلى مكة للعمرة، وفتح مكة، وحجة الودا ع. وقد حرص على أنه يسلك هذه الطرقات مع دليله الملازم له الشيخ عبدالحميد الحديدي.

أما في صعوده من مكة إلى الطائف فقد رافقه شاب حجازي وهو الشيخ صالح القزاز – وكان آنذاك أمين دار المال في الطائف – الذي أصبح مشرفا على توسعة الحرم الشريف في الستينات من هذا القرن الميلادي، ثم الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، ولقد تشرفت بزيارته في الخمسينات من هذا القرن عند أولى زياراتي للحجاز وإقامتي فيها ثلاث سنوات، وكان رحمه ا لله صالحا تقيا جم النشاط محبا لزوار الحرم الشريف، وكان يحب سماحة الشيخ مولانا السيد أبا الحسن علي الندوي غاية الحب وله صلة قلبية قوية معه. فكان الشيخ صالح القزاز دليلا لصاحب" **في منزل الوحي**" في زيارته للطائف، بجانب عبدالحميد الحديدي، وأما في المدينة المنورة فكان دليله إلى آثار المدينة الشيخ عبدالقدوس الأنصاري، مؤلف **آثار المدينة المنورة** وكان أستاذ شابا للأدب في المدرسة الشرعية بالمدينة، ومن سعادتي أنني تعرفت إليه أيضا في أولى رحلاتي إلى الحجاز في رفقة سماحة مولانا السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي – مؤسس رابطة الأدب الإسلامي العالمي– وذلك في عام ١٣٧٠هـ/١٩٥٠م، وكان إذ وذاك استقر الشيخ عبدالقدوس بمكة يصدر مجلة المنهل الشهرية ومكتبه عند باب إبراهيم، وأذكر أنه نشر لي في مجلته تلك مقال عن شاعر

الإسلام محمد إقبال، خلال إقامتي بمكة من سنة ١٩٥٠م إلى سنة ١٩٥٣م سوى أشهر قضيتها في المدينة المنورة وأخرى في مدينة الدمام.

ومن المؤكد أن القارئ المعاصر لكتاب **"في منزل الوحي"** والذي سبق له أن زار بلاد الحجاز والحرمين الشريفين في غضون الخمس أو العشر سنوات الماضية لايجد فيها أي شيء من معالم مدن جدة ومكة والطائف والمدينة، مما ذكره المؤلف، فإن هذه المدن والحرمين الشريفين نفسيهما قد طرأت في مبانيهما - سوى الكعبة والروضة الشريفة والمواجهة - تغييرات جذرية، ليس هذا فقط بل إنّ الطرق التي بين هذه المدن الأربع وغيرها من المدن والقرى في الحجاز تغيّرت معالمها تغيرا شاملا، فترتبط بين بعضها ببعض "طرقات سريعة" (EXPRESS WAYS) حسب التعبير الأمريكي أو "أوتو استراد" حسب التعبير الأوربي، تماما كما هو الحال في ألمانيا وإيطاليا وإنجلترا وأمريكا عن الطرقات بين المدن الكبرى، وأصبحت الحال أن الواحد يسكن في مكة وعمله في جدة فيتنقل بينهما ذهابا وإيابا يوميا كما يتنقل الواحد منا في داخل مدينة كبرى، ولا يستغرق ذلك أكثر من ساعة واحدة وكذلك الحال بالنسبة للطائف ومكة، وأما المدينة فلا يأخذ الذهاب إليها من مكة بالسيارة أكثر من أربع ساعات. ذهبت إليها أنا بواسطة سيارة النقل -أو أتوباس- كما يقولون في المملكة السعودية- في سنة ١٩٥١م، فاستغرق الوقت ٢٤ ساعة، ثم ذهبت إليها من مكة المكرمة في سنة ١٩٦٤م في سيارة الأجرة (التاكسي) الصغيرة فاستغرق في الطريق الواسعة المعبّدة المسَفلة ١٦ ساعة، ثم سرت في

الطريق السريع الجديد المزدوج في سيارتي عام ١٩٨٦م فلم يأخذ أكثر من أربع ساعات ونصف ساعة، وأصحاب سيارات الأجرة(التاكسيات) والسيارات الفخمة يطوونها في ثلاث ساعات ونصف ساعة.

فكل ما ذكره المؤلف في هذا المضمار قد لايجد التجاوب لدى القاري المعاصر، ولكنني أجد فيه ما شاهدته قبل سبع وأربعين سنة، فهذه المعالم كلها ماثلة أمام عيني كما ذكرها المؤلف وينتابني الحنين إليها، إذ كنت في الحجاز بعد رحلة مؤلف " **في منزل الوحي**" إليها بأربع عشرة سنة فقط، فكان الحرم الشريف بمكة كما وصفه، المطاف صغير، وفناء الحرم من أطرافه الأربعة مفروش بالحصباء(الحصوة في لغة أهل مكة) وعديد من المماشي المرصوفة بالحجارة السوداء من أروقة الحرم من جوانب الحصباء إلى المطاف ، وعلى جانب من المطاف بئر زمزم داخل بناء يشرب منها الحجاج والطائفون بعد طوافهم، وبجانب البئر على حافة المطاف قوس في موضع باب بني شيبة القديم مكتوب عليه اسم الباب، وفي فناء الحرم أربع مكبّريات (مصليات عند البعض) على المذاهب الأربعة الفقهية وهي كانت عبارة عن مظلات، ومقام إبراهيم عبارة عن حجرة أو مقصورة صغيرة، داخلها قدم سيدنا إبراهيم (عليه السلام) الكبير كما يقولون منقوش على حجر أملس وقف عليه عند بناء الكعبة، وكل هذه المباني هدمت وأزيلت من زمان عند توسيع المطاف، والمطاف أضعاف ما كان عليه زمن زيارة محمد حسين هيكل بل حتى سنة ١٩٥٣م عندما غادرت أنا مكة إلى مصر،

ثم عدت إليها بعد عشر سنوات، كانت توسعة الحرم قد بدأت آنذاك، والتي كملت في أوائل التسعينات.

وكذلك الكلام بالنسبة للمسعى، فالصورة التي قدمها له محمد حسين هيكل في سنة ١٩٣٦م من كونه سوقا كبيرا يقوم على جانبيه دكاكين كبيرة ومنها محلات لصرّافي العملة، ويمرّ في هذا الشارع المسقوف عربات وسيارات وظلت الحال حتى سنة ١٩٥٣م، وبعدها لسنوات أيضا، والحمد لله أن المملكة العربية السعودية جعلت المسعى الآن بما يليق بجلال هذا المكان، وهو الآن ذو طابقين، وداخل في الحرم الشريف، يقوم بواجب السعي فيه الحجّاجُ والمعتمرون بكثير من السهولة، ولايمكن أن يتصوروا ما كان عليه الحال قبل نحو أربعين سنة.

ومكة الحديثة التي تحدث عنها مؤلف **في منزل الوحي**، تغيّرت معالمها منذ نحو عشرين سنة تماما، ولا وجود لها الآن، بل مكة الحديثة الموجودة فيها أحياء حديثة وطرقات واسعة مزدوجة جديدة بحيث الزائر أو الحاج الذي زارها في الخمسينات لا يمكن أن يتعرف عليها، والحقيقة أن كل شيء تغير في مكة إلا الكعبة ، والعمران اتصل بمنى أو كاد، وكذلك في المدينة فقباء، والبقيع، وأُحُد، وغيرها من الأماكن التي كانت خارج المدينة في زمن وبعد زمن هيكل بنحو ثلاثين سنة إذ أكثرها أو كلها الآن في داخل المدينة المنورة.

وفي الكتاب فصول شيقة مهمة لها علاقة بالأوضاع السياسية والاجتماعية في الحجاز في بداية عهد الملك عبدالعزيز آل سعود، ومنها فصل " ابن السعود بمكة" ذكر فيه المؤلف لقاءاته الثلاثة معه، وتبادل

الحديث معه في أمر الحجاز والحكم، والتأزّم بين الملك عبدالعزيز وملك مصر فؤاد الأول واقتراح محمد حسين هيكل أن تكون مكة المكرمة مثل جنيف في أوربا وفيها عصبة الأمم الإسلامية إلى غير ذلك من الأمور الكثيرة، وهذا الفصل كله طريف يلقي الأضواء على الفكر السياسي والديني للملك عبدالعزيز؛ ويلاحظ المرء فيه أن الملك خاطب فيه محمد حسين هيكل بكلمة "يا أخي"، كل هذا يَهُمُّ ويفيد المؤرخ السياسي والديني لبداية عهد الحكومة السعودية في الحجاز بعد فتحهم له سنة ١٩٢٦م. ومن طريف ما جاء فيها أن النجديين في أول مجيئهم إلى الحجاز شددوا على المدخنين فيه، وعاقبوهم بشدة، وحدث نتيجة ذلك أن قلت موارد الجمارك لقلة استيراد التنباك والسجائر، وتأثرت به ميزانية الدولة، وعمت الدعاية خارج الحجاز أن الدولة السعودية الجديدة تحرم التدخين خلاف المذاهب الفقهية الأخرى، وتنظر باحتقار إلى من يحلق اللحية، إذ ذلك أسرعت الحكومة بالإعلان بأن " **لاَ إكْرَاهَ فِيْ الدِّيْنِ**"، وأن الذين يجيئون للحج من أهل المذاهب المختلفة لاجناح عليهم أن يدخنوا أو يحفوا لحاهم أو يفعلوا ما تبيحه لهم مذاهبهم مادام لايحلّ ما حرم الله في كتابه، والتمست الحكومة الفتوى بذلك عند عالم نجد الشيخ عبدالله بن بليهد، فأفتى بأن الدخان لايسكر كثيره ولا قليله فهو غير محرم وإن كان مكروها، وبذلك أبيح التدخين لمن شاء من الحجيج (وأهل الحجاز) وعادت موارد المكوس منه إلى مثل ما كانت قبل تحريمه" (ص ١٥٧).

وشبيه بذلك أو أكثر طرافة منه قصة التلفون والراديو عند

النجديين في بداية عهدهم بالملك، وكانوا يزعمون أن الشياطين هي التي تتكلم فيهما، فكانوا لذلك يحرمون استعمالهما، ولما كانت الحاجة ماسة إلى هذه المخترعات ولم يكن الاستغناء عنها ممكنا، عالج ابن سعود هذا الأمر بحكمة، فقد دعا كبار المشايخ وسألهم: أتستطيع الشياطين أن تتلو القرآن ، فلما أنكروا ذلك طلب أن ينصتوا لما في سماعة التلفون، فإذا هو قرآن يتلوه قارئ جميل الصوت، فلم يبق لديهم ريب في حلّه وكان ذلك شأنهم أمام الراديو"(ص١٥٨).

ومن غريب ما جاء في الكتاب (فصل أيام التشريق) دعاء البدو النجديين أثناء السعي: "رب اغفر، حتما تغفر، إن لم تغفر من ذا يغفر"، وأكثر من ذلك دعاؤهم: "رب اغفر، حتما تغفر، إن لم تغفر جنتك تصغر".

ويذكر هيكل أنه رأى بعض الناس يقومون بواجب السعي" ممتطين خيولا" أو "مستقلين السيارات"، كما ذكر أن عالم النجديين الأكبر" الشيخ عبدالله ابن بليهد كان يسعى ممتطيا جوادا" (ص١١٤).

وفي الكتاب تحقيقات عظيمة عن أسواق عكاظ وذي المجاز ومجنة، وكذلك عن الطريق التي سلكها الرسول عليه صلى الله عليه وسلم في طريقه إلى الطائف لدعوة أهاليها إلى الإسلام وفي عودته منها في طريق مخيف في شعب ثنية بين جبال عالية جدا، وهو يسير وحده.

ومن الروايات الغريبة ما قرأت في الكتاب أن الوليد بن عبدالملك أدخل في توسعته المسجد النبوي حجرة عائشة رضي الله عنها التي فيها قبر الرسول صلى الله عليه وسلم رغبة في إخراج سيدنا

حسن المثنى بن سيدنا حسن السبط وزوجته السيدة فاطمة بنت سيدنا حسين من بيت جدتهم السيدة فاطمة رضي الله عنها، عندما رآه في حجته وزيارته للمدينة في منزله ذاك وما سمع عن مكانتهم في قلوب أهل المدينة، فأمر واليه على المدينة عمر بن عبدالعزيز " لا أرى هذا قد بقي بعد، اشتر هذه المواضع وأدخل بيت النبي - صلى الله عليه وسلم - في المسجد واسدده"، وروى أن الحسن بن سيدنا الحسن رضى الله عنهما وزوجته فاطمة بنت سيدنا الحسين (رضي الله عنهما) وأولادهما أبوا أن يخرجوا من البيت حين علموا بأمر الوليد فأرسل إليهم إن لم تخرجوا منه هدمته عليكم، فأصروا على إبائهم فأمر بهدمه عليهم، ونزع العمال بالفعل أساس البيت وهم فيه وهددوهم قائلين: " إن لم تخرجوا قوضنا عليكم"، فخرجوا، ونفذ عمر بن عبدالعزيز أمر الوليد بضم بيوت النبي صلى الله عليه وسلم إلى المسجد.

وأورد هيكل في هذا الصدد رواية لنصر الخراساني، يقول فيها:" أدركت حجرات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، فما رأيت يوما كان أكثر باكيا من ذلك اليوم. وسمعنا سعيد بن المسيب يقول: والله لوددت أنهم تركوها على حالها".

ويعقب هيكل على هذا بقوله: لعل منهم من فطن إلى أن الوليد أمر لهدم حجرة فاطمة غضبا على أبنائها، ثم أمر بهدم سائر الحجرات حتى لا يتهم بأنه هدم حجرة فاطمة – رضي الله عنها – انتقاما من أبناء علي – رضي الله عنه – بغياً بغير الحق متخذاً من توسيع المسجد حجة له، فقد سبقه عثمان – رضي الله عنه – وعمر رضي الله عنه –

إلى توسيعه فتركا حجرات أمهات المؤمنين وزادا في المسجد من سائر نواحيه" (ص ٤٨٧ - ٤٨٨).

ومن طريق ما جاء فيها بمناسبة توسيع الوليد المسجد النبوي في سنة ٨٨هـ والزخرفة فيه، أنه كان يطوف فيه مع أبان بن عثمان - رضي الله عنه - وقال الوليد معجبا مزهوا بذلك لأبان: " أين بناؤنا من بنائكم"، فكان جواب أبان: " إنا بنيناه بناء المساجد وبنيتموه بناء الكنائس" (ص٤٨٩).

وهكذا، ففي الكتاب من التاريخ الإسلامي شيء كثير، وفيه معلومات طريفة عن الآثار في الحجاز، وتحقيقات دقيقة عن كثير من المواضع، ولكن لا يسعني أن أقول: إن ما كتبه المؤلف في فصل "آثار مكة" عند الكلام على مواضع نزول الوحي قائلا: "فكتب السيرة لم تكتب إلا بعد قرنين أو نحوهما من وفاته صلى الله عليه وسلم،والحديث لم يجمع كذلك ولم يدوّن إلا في عهد العباسيين" أقول: كلامه هذا غير دقيق، ولا نصيب له من الصحة. فإن من المعلوم أن محمد بن إسحاق ألف السيرة النبوية قبل سنة ١٥٠هـ إذ وفاته في هذه السنة أو سنة ١٥١هـ، أي بعد مضي " قرن وربع قرن على وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الذي اختصره ابن هشام المتوفى سنة ٢١٨هـ والذي عرف بسيرة ابن هشام، ولعل المرحوم هيكل انخدع بذلك، فإن كتاب ابن إسحاق لم يكن قد عثر عليه في زمنه، ولكنه اكتشفه الدكتور محمد حميد الله في مكتبة القرويين بفاس، ونشر الجزء الأول منه منذ مدة غير قصيرة، والأكثر من ذلك أن السيرة

النبوية بقلم عروة بن الزبير(المتوفى سنة ٩٤هـ) والمبثوث في كتب السيرة القديمة العديدة قد جمعها الدكتور مصطفى الأعظمي الهندي مولداً السعودي جنسية، ونشر الكتاب بعنوان : "مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم" لعروة بن الزبير سنة ١٩٨١م، الرياض.

وأما الحديث فكلام هيكل عنه كلام عادي قديم،ينقضه ما جاء في كاب "**تقييد العلم**" للخطيب البغدادي(المتوفى سنة٤٦٣ هـ)وهو كتاب صغير لطيف مهم،يذكر فيه هذا المحدّث المؤرخ العظيم مجموعات الحديث النبوي لأنس بن مالك وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة وغيرهم رضي الله عنهم، وهذا الكتاب كان قد نشره أستاذي المرحوم الدكتور يوسف العش، أستاذ التاريخ الإسلامي في كلية الشريعة بجامعة دمشق قبل نحو خمس وثلاثين سنة، ونشر الكتاب لأول مرة بتحقيقه سنة ١٩٤٩م وأعيد طبعه سنة ١٩٧٤م.

ومثل هذا لا يوجد في كتاب " **جامع بيان العلم وفضله**" لابن عبدالبر المتوفى سنة و٤٦٣هـ أيضا، يضاف إلى ذلك التحقيقات العظيمة للعلامة التركي المعاصر الدكتور فؤاد سيزكين **تاريخ التراث العربي**(٧ مجلدات في اللغة الألمانية) الذي ترجمت مجلداته الأولى الأربعة إلى اللغة العربية، وفي المجلد الأول منه بحث عن تدوين الحديث النبوي يتأكد منه أن الحديث قد بدأ تدوينه في العهد النبوي ثم اتسع الأمر في العهد الأموي، والإمام الزهري المتوفى سنة ١٢٤هـ معروف لجمعه الحديث النبوي - صلى الله عليه وسلم.

وفي كتاب "**في منزل الوحي**" عدة خرائط للحجاز، ومكة

والمدينة والأماكن الأثرية فيها وهو بعد كتاب علمي أدبي حافل، ويحتل مكانه مرموقة بين كتب أدب الرحلات إلى الحرمين في القرن العشرين، فرحم الله مؤلفه وآثابه على ما أتحفنا به من علم وتوجيه.

هوامش

١- ولقد وقع من المؤلف سهو في هذا التقديم، حيث قال:" فلما اشترك الفرس والتتار في بلاط بنى العباس ونازعوا العرب الحكم" (ص٢٠) والصواب فيه الأتراك (المماليك) بدل التتار كما هو معروف.(رضوان).

***